تاريخ الإرسال (2020-12-29)، تاريخ قبول النشر (2021-01-17)

د. مريم بنت عبد العزيز بن عبد الله العيد

اسم الباحث:

أستاذ مشارك بكلية العلوم والدراسات الإنسانية بشقراء -
قسم اللغة العربية

اسم الجامعة والبلد:

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address:

m_aleid@su.edu.sa

السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء اليمامي (282هـ) دراسة تداولية

<https://doi.org/10.33976/IUGJHR.29.2/2021/4>

الملخص:

احتلت نوادر أبي العيناء مكانة بارزة في التراث العربي؛ لما تحمله من قوة حجاجية، وسرعة البديهة، وحسن اختياره للإجابة في المواقف الحرجة، خاصة أمام الخليفة المتوكل وحاشيته، وقد نوع في أساليب الخطاب التي تتميز بالكفاءة التداولية، من حيث هي وسيلة للتواصل والتأثير، فالندرة خطاب تواصلي تمتاز بخصائص تختلف عن غيرها من الخطابات السردية. ويهدف البحث إلى إبراز حجاجية الندرة، وإبراز آليات السخرية من السلطة في سياقها اللغوي، وفي سياقها المقامي، والتركيز من خلال كل ذلك على مقتضى القول ومقصدية، واعتمدت المنهج التداولي لمقاربة نوادر أبي العيناء؛ لما فيها من مقاصد تداولية، وقوة حجاجية، وأفعال كلامية ينبغي الكشف عن آلياتها، وقد جاءت نوادر أبي العيناء متنوعة الأساليب الخطابية التواصلية التأثيرية، كالسخرية في قالب المدح والتعريض والمخاتلة، واعتمد أبو العيناء على سياقات لغوية وسياقات مقامية جعلت سخريته من السلطة تخلق عنصر الإدهاش والمفاجأة، واتبع طريقة تمكنه من التأثير بالقول وهو عمل عقلي مبني على أمور نفسية واجتماعية وتاريخية تتفاعل في ذهن المتكلم فيقوم باختيار وسائل لغوية للوصول إلى هدف معين، وينتصر لنفسه في المواقف المحرجة، بأسلوب ساخر يضم نقداً لازعاً للسلطة تنوع بين النقد الديني والاجتماعي والسياسي، وتعد نوادره رقعة خصة لتحليل الخطاب.

كلمات مفتاحية: الخطاب، الكفاءة اللغوية، اليمامي.

The Irony Of Authority In Abi Al-Ayna'a Alyamani's Anecdotal.

Abstract:

Abi Al-Ayna'a anecdotal occupied a prominent position in the Arabian heritage, because they included strong pleading, promptitude and good choice of replying in the embarrassing situations especially in front of the Chaliphe Al-mutawakkel and his entourage.

anecdotal are a communicate speech have a different of the narrative speeches, the research aims to highlight the rare anecdotal, and highlight irony ways of authority in the linguistic style focusing on the main and purpose of talk, I choose the deliberate curriculum to appropriating Abi Al-Ayna'a's anecdotal, include deliberative purposes and strong and words act must explain through the mechanisms, Abi Al-Ayna'a's anecdotal had a variety affective communicate speech style such as the irony in the mold of praise, Abi Al-Ayna'a depended on linguistics sequences made his irony of authority to create the element of astonishment and surprise, and follow a way to enable him to influence saying and that is a mental act depended on social and psychological, historical things interact on speaker's mind and then choose of means reach a specific goal for himself in the embarrassment with irony style hides a bitter criticism for authority between the political social religious criticisms, his anecdotal an appropriate place for the analysis of the speech.

Keywords: speech -linguistic competence, Alyamani's,

المقدمة:

احتلت النوادر مكانة بارزة في التراث العربي، لما تحمله من تعبير عن الواقع من خلال الفكاهة والسخرية، وقد انتشرت النوادر والملح بصورة لافتة للانتباه في العصر العباسي، "وقد كان الجاحظ أول من خاض غمار هذا الفن الذي يعد مؤسساً لجنس النادرة في الأدب العربي"⁽¹⁾، وبداية نحو تدوين مصادر التراث العربي الفكاهي؛ لتسهم في خدمة هذا العنصر أو ذاك في سياق الصراعات الاجتماعية والثقافية، تلت مدونات أخرى لعل أبرزها (جمع الجواهر في الملح والنوادر) لأبي إسحاق الحصري القيرواني (453هـ)، التي شغفت بقراءتها، ولفت انتباهي ما جمعه الحصري من ملح ونوادر عن أبي العيناء اليمامي، وقد شدني في هذه النوادر سخرية أبي العيناء من أصحاب السلطة والنفوذ؛ لذلك سميت بحثي "السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء اليمامي (282هـ): دراسة تداولية".

وتكمن أهمية البحث فيما تحويه نوادر أبي العيناء من قوة حجاجية، وما يحمله أبو العيناء من سرعة البديهة، وحسن اختياره للإجابة في المواقف الحرجة، خاصة أمام الخليفة المتوكل وحاشيته.

أما أسباب اختياري للموضوع، فيكمن في جدته، وفيما تحمله هذه النوادر من تنوع في أساليب الخطاب، التي تتميز بالكفاءة التداولية من حيث هي وسيلة للتواصل والتأثير؛ فالنادرة خطاب تواصلية تمتاز بخصائص تختلف عن غيرها من الخطابات السردية.

وأهداف البحث تكمن في إبراز حجاجية النادرة، وإبراز آليات السخرية من السلطة في سياقها اللغوي وفي سياقها المقامي، والتركيز من خلال كل ذلك على مقتضى القول ومقصديته.

سأعتمد المنهج التداولي مقارنة لنوادر أبي العيناء؛ لما تحمله هذه النوادر من مقاصد تداولية وقوة حجاجية وأفعال كلامية ينبغي الكشف عنها من خلال آليات هذا المنهج.

كثيرة هي المصادر التي تطرقت إلى النوادر بصفة عامة، خاصة نوادر الجاحظ، ونذكر منها ما كتبه محمد مشبال في كتابه "بلاغة النادرة". ومنهم من تحدث عن نوادر أبي العيناء جمعاً وتحقيقاً وشرحاً، ولكنهم لم يتطرقوا إلى السخرية من السلطة في هذه النوادر تداولياً.

أسفر البحث عن منهجية الخطوة التالية، وهي تتألف من تمهيد وفصلين، سأنتقل في التمهيد إلى شرح مختصر لمفردات العنوان، ومفهوم السخرية وجذورها اللغوية، ومفهوم النادرة وتصنيفها الأجناسي، ثم التعريف بأبي العيناء.

أما الفصل الأول فسميته "السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء في سياقها اللغوي"، وفيه مبحثان: المبحث الأول "آليات السخرية من السلطة"، وسأتناول فيه الصورة من حيث التصوير الهزلي للحدث والتصوير الخلفي والخلقي، ثم الحوار وحجاجية الحوار والمفارقة، وسأنتقل في المبحث الثاني إلى سمات السخرية من السلطة، من حيث سمة الأسلوب الشعري، والتناص الدينيين وسرعة البديهة، وحجية الجواب.

وأما الفصل الثاني فسميته "السخرية من السلطة في سياقها المقامي"، وقسمته على مبحثين: المبحث الأول سيكون عن السخرية المضمرّة وقرائنها من حيث عنصر السخرية في قالب المدح وعنصر التعريض والمخاتلة، وأما المبحث الثاني فعنوانه "السخرية الجلية ومكوناتها"، وسيتجلى من خلال عنصر المجون والإقذاع، وعنصر التهكم والإضحاك. وختمت بحثي بخاتمة استخلصت فيها أهم النتائج.

(1) رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس (ص93).

التمهيد:

يحتل خطاب النوادر العربية مكانة بارزة في التراث العربي؛ فقد عرف العرب هذا اللون من القصص منذ أقدم العصور، لكنه ازداد توهجاً في العصر العباسي؛ لاتساع الدولة الإسلامية وامتزاجها بالحضارات والشعوب الأخرى، كالفارسية والهندية وغيرها، ودخل كثير من أبناء هذه الشعوب إلى الإسلام، ونشطت الحركة الثقافية والأدبية، وكثرت الفرق الإسلامية، واتسعت دائرة الحجاج والمناظرة، وفي هذا المحيط النشط المتترف تنامي الأدب الساخر، ونشطت حركة النثر بمختلف أشكالها بما فيها القصص الفكاهي الذي أصبح السمة الغالبة لهذا العصر⁽²⁾، لذلك حاولت في هذا البحث الوقوف على موضوع "السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء اليمامي: دراسة تداولية"؛ لأن النوادر عمل إنشائي إنجازي ليست غايته الإخبار والإمتاع فحسب، بل إن له غايةً حجاجيةً إقناعيةً بها يخدم السياق الذي دونت فيه تلك النوادر بما فيه من صراعات. وإذا كان مدار حديثنا هو السخرية، فإن هذه الأخيرة تكتسي أهمية قصوى داخل الخطاب الأدبي للنوادر «على مستوى تشكلها أولاً بصفتها ظاهرة فنية تقوم على علائق لغوية وعلامات وأقوال لغوية مرتبطة بالكتابة بصفتها ممارسة نصية، وعلى مستوى إسهامها في إنتاج دلالة النص، ذلك أن السخرية يمكن أن تتمظهر خطابياً اعتماداً على كلمات مكررة أو أقوال أو إشارات. وتعد هذه العناصر وظيفية؛ لأنها ترمي إلى توليد آثار دلالية تتراوح بين معنى ظاهر وبين معنى محايث يكون مرتبطاً بمقصدية الكاتب، وهذا المعنى الثاني الذي يقصد إليه الكاتب يسهم في تشكيل دلالة النص»⁽³⁾. وتعد نوادر أبي العيناء رقعة خصبة لتحليل الخطاب، وتشغيل الآليات والمفاهيم التداولية، من أجل الوصول إلى مقاصد سخريته من السلطة.

وقبل التطرق إلى هذا الموضوع ينبغي أن نتوقف عند بعض المفاهيم كمفهوم السخرية والنادرة وغيرها من المترادفات التي

تتبعها.

* مفهوم السخرية وجذورها اللغوية:

معنى السخرية لغةً:

السخرية من مادة (س خ ر) وأصل التسخير: التذليل، جاء في اللسان: سخرته: أي قهرته وذللته. وسخره تسخيراً: كلفه عملاً بلا أجر، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك: "مسخر" وتسخرت دابة لفلان: أي ركبته بغير أجر...، يقال: سَخَرَ منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا ومَسَخَرًا وسُخِرًا بالضم وسُخِرًا وسُخِرًا وسُخِرًا: هزئ به، والاسم السخرية والسُخري⁽⁴⁾. نفهم من هذا التعريف اللغوي أن السخرية هي التذليل والاستهزاء؛ أي حمل الأقوال والأفعال على الهزل واللعب لا على الجد والحقيقة، والمقصود بذلك هو الانتقاد والهجاء، وهذا المفهوم اللغوي يستند إلى المفهوم الشرعي للسخرية، وهذا ما بيّنه ابن تيمية في قوله: إن الذي يسخر من الناس هو الذي يذم صفاتهم وأفعالهم ذمًا يخرجها عن درجة الاعتبار⁽⁵⁾. ويعتبر أكثر علماء اللغة ومفسرو القرآن الكريم أن كلمة الاستهزاء والسخرية ذات معنى واحد، ومعناها هو احتقار الطرف المقابل والتقليل من قيمته وشأنه ومنزلته⁽⁶⁾، أو الاستهزاء بأحد الأصول والمباني والتعاليم الإنسانية والدينية، وإظهارها للآخرين بشكل يوحي بأنها عديمة الأهمية. إن كلمة "السخرية" المشتقة من كلمة "يسخر" هي بمعنى الاستهزاء، والاستهزاء هو: ذكر ما يستحق ويستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليد الأمر الذي ينجم عنه الضحك⁽⁷⁾.

معنى السخرية اصطلاحاً:

(2) عيسى، المكونات السردية للخبير الفكاهي دراسة في أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، الغزالي (ص 189)

(3) نوسي، السخرية ومراتب المعنى (472)

(4) ابن منظور، لسان العرب

(5) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى (22/ 1987)

(6) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم (ج 11)

(7) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن (ص 321)

هي طريقة من طرق التعبير، وصورة هجائية عن الجوانب القبيحة والسلبية للحياة، وتصوير لعيوب المجتمعات، ومفاسدها، وحقائقها المرة، يستعمل فيها الشخص ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، والغرض منه الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يضحك منه، وهي النقد والضحك أو التجريح الهازئ. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء. وغرض الساخر هو النقد أولاً والإضحاك ثانياً، كأن يقوم بتصوير الإنسان تصويراً مضحكاً بواسطة التشويه أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة.. إن السخرية تجعلنا نتعرف على الإنسان وعلى الذين وجهت السخرية إليهم، ولا تهدف السخرية إلا إلى هذه الغاية. توظف السخرية الناس من سباتهم العميق، وتقدم تعريفاً عن طرف الصراع الذي أصيب بسهام غضب الساخر؛ لأن «الغاية الكبرى من السخرية، تحقيق الوعي وإيجاد اليقظة»⁽⁸⁾.

نستنتج من التعريفات السابقة أن التعريف اللغوي يميل إلى التعريف الشرعي الذي يبين أن السخرية هي النقد والهزاء بغرض الاستهزاء، أما التعريف الاصطلاحي فيبين أن الغرض من السخرية هو النقد والهزاء بغرض إصلاح المجتمع، وإن جاز لنا مناقشة هذا القول فإننا نقول إن السخرية تُفهم من السياق ومن المتكلم بالسخرية ومعرفة موقفه إن كان فعلاً يستهزئ من أجل الاستهزاء فقط وإظهار عيوب الآخر، أم أن سخريته تستبطن نوايا أخرى غرضها الإصلاح وليس الإفساد.

ومفهوم السخرية في الحقيقة هو مفهوم فلسفي، جذوره تمتد إلى العصر اليوناني منذ الفيلسوف سقراط، الذي تحدث عن السلوك الساخر وجعل منه المبدأ الأساس لتوليد الحقيقة في علاقته بمحاوريه⁽⁹⁾، ثم يأتي بعده أرسطو الذي جسد السخرية في الملهة وسماها المحاكاة الساخرة، غير أن السخرية تختلف عن المحاكاة الساخرة على مستوى النصوص، فالمحاكاة الساخرة تقوم على امتصاص النصوص السابقة على النص الجديد، ولذلك تدرج في مجال حوار النصوص، فهي "تناصية"، أما السخرية فهي "ضمن-نصية"؛ لأنها تتحقق على مستوى النص اعتماداً على المفارقة اللغوية التي تتجلى على مستوى الوحدة المعجمية الوحيدة أو الجملة، أو القول اللغوي. فالمفارقة اللغوية تعد عنصراً أساسياً في تحديد بنية السخرية، لأن السخرية ارتبطت دوماً في التحديد بعنصر المفارقة، كما يستخدم مفهوم السخرية في علاقته بمفهوم الهزاء الانتقادي، غير أن هذا الأخير يتحدد من خلال موضوع السخرية؛ لأن مقصدية الهزاء الانتقادي تقوم على الازدراء والتجريح والسخرية من عيوب السلوك البشري؛ لذلك يعتمد على العناصر الخارج نصية، وليست المعايير الأدبية أو الظواهر الفنية⁽¹⁰⁾. ونحن سنكشف عن مدونة نوادر أبي العيناء التي تُصنّف ضمن الخطاب الساخر المضحك، ونحاول أن نتعرف على سخريته من السلطة من أجل الكشف عن مقصديته. وقبل التطرق إلى ذلك لابد من الوقوف على مفهوم النادرة وتصنيفها الأجناسي.

* مفهوم النادرة وتصنيفها الأجناسي:

لا شك في أن اسم النادرة له مساره التاريخي، فأول من أشار إلى "النوادر والملح" وأفرداها في كتاباته بصورة مستقلة -حسب ظني- هو الجاحظ، حيث أطلق على حكايات بخلائه تسميات متعددة: "النوادر، والملح، والطرف، والقصاص، والأحاديث". وسواء أكانت هذه التسميات تحيل على نوع سردي واحد، أم كانت بينها فروق دقيقة، فالمهم أنها تلتقي في جملة من السمات يكون تصنيفها في إطار الحكيم الطريف. وفي الحقيقة يصطدم الدارس المعاصر الذي يروم تشغيل مقولة التجنيس في قراءة هذا النوع من الحكيم الذي يحمل أكثر من تسمية، ولا شك أن اختيار تسمية النادرة لا يلغي التسميات الأخرى، ولكنه يحتويها بوصفها مرادفات لها، وإن افترض وجود فروق نوعية بين تلك التسميات التي أطلقها الجاحظ على حكيه ينبغي ألا يقلل من قيمة افتراضنا بضرورة إدراجها في إطار موحد هو "النادرة"؛ التسمية الأكثر شيوعاً والأقوى تمثيلاً لهوية هذا النوع من الحكايات⁽¹¹⁾.

(8) - أبو القاسم، السخرية، بلغتها، أشكالها، ودوافعها

(9) نوسي، السخرية ومراتب المعنى (ص 472-473)

(10) المرجع السابق، (ص 476)

(11) مشبال، بلاغة النادرة (ص 9-10) بتصرف

والنادرة هي خبر لخلق انفعال بقصد الإضحاك، وهي خبر فكاهي ونوع من القصص الفكاهي، صغير في حجمه لا يتجاوز الأسطر القليلة، يعتمد على وحدة قصصية واحدة تكشف عن موقف واحد، ويعتمد على لغة فنية تتناسب مع الموقف، وقد تكون باللغة العربية الفصحى، وقد تأتي بالعامية لتؤدي الغرض، وتنقل الموقف الفكاهي كما كان، وقد تكون اللغة شعرا وقد تكون نثرا⁽¹²⁾.

ومما تحفل به النوادر هو الخبر الهزلي الذي يعتمد على:

1- السخرية من الآخر وكشف صفاته.

2- ذكر الأمور غير المألوفة أو المعتادة.

3- احتوائه على شيء من المفاجأة.

4 -اعتماده آلية المبالغة في سرد الأحداث.

5- اعتماده أسلوب المفارقة⁽¹³⁾.

وتجتمع النوادر والطرائف في أنها تحتوي على الكثير من الدلالات الرامزة والصريحة، وبها الكثير من البراهين والإثباتات لقضايا معيشة في حياة الناس، والتي يمكن أن تحدث في كل زمان ومكان، وغالباً ما تميل إلى نقد سلوك معين أو صفة خلقية ومثابة أراد الكاتب أن ينفر الناس من اجترأها، أو قضية اجتماعية أو سياسية⁽¹⁴⁾؛ ولذلك فالنوادر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخطاب الساخر. وإذا كان موضوعنا يدور حول نوادر أبي العيناء وسخريته من السلطة، فمن هو أبو العيناء؟

*التعريف بأبي العيناء اليماني:

هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خالد بن ياسر بن سليمان اليماني الهاشمي. لُقِبَ بأبي العيناء اليماني. شاعر من العصر العباسي الأول، عُرف بالفصاحة والظرافة، وتُرْوَى عنه نوادر كثيرة.

ولِدَ في الأهواز عام 191هـ، انتسب بالولاء إلى بني العباس وأصبح مولى لهم، ثم انتقل في فترة من حياته إلى البصرة، وعاش فيها ردياً من الزمن، وفي البصرة تتلمذ لدى عددٍ من علمائها وشيوخها، منهم أبو زيد الأنصاري والأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى.

فقد بصره في سنِّ الأربعين، و«يقال: إن جده الأكبر لقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأساء مخاطبته، فدعا عليه وعلى ولده بالعمى، فكل من عمي منهم فهو صحيح النسب. وكان قبل العمى أحول.»⁽¹⁵⁾ الأمر الذي جعله يخرج من البصرة، ولكنه ظلَّ يتردد بينها وبين بغداد وسامراء، توطدت علاقته بالعديد من الخلفاء، وعُدَّ من جلسائهم وندمائهم وتُوقِّي أبو العيناء في البصرة، وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثاني سنة 283هـ، وقيل إنَّه تُوقِّي في 282هـ.⁽¹⁶⁾

كان يتكسب من الخلفاء والوزراء، وكانت عاصمة الدولة بغداد مطمح فؤاده، حيث الكتاب والوزراء وأصحاب السلطان، وأظلت في بغداد خلافة المأمون (ت218هـ)، والمعتصم (ت227هـ)، والواثق (ت232هـ)، والمتوكل (ت248هـ)، والمنتصر، والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وصدر من خلافة المعتضد بالله الذي تولى الخلافة سنة 279 وتوفي سنة 289، وعندما ارتحل من بغداد قصد

(12) عيسى، التراث العربي، الغزالي (ص192)

(13) كريم، الخبر الهزلي في أخبار الحمقى والمغفلين (ص9)

(14) أبو طالب، الفرق بين النادرة والطرفة. (19)

(15) القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر (ج1/107)

(16) أبو سويلم، أبو العيناء محمد أبي القاسم بن خالد (ص9-16) بتصرف، وينظر أيضاً تاريخ الأدب العربي: الأعصر، وينظر أيضاً معجم

الشعراء العباسيين، عبدالرحمن (ص352)، وكذلك. الأعلام (ص334)

الحسن بن سهل وزير المأمون فأجزل له العطايا، كما جعل له المأمون راتباً شهرياً⁽¹⁷⁾، كانت له نوادر عديدة تحمل روح الطرفة في مخالطته لأصحاب السلطة والنفوذ من الخلفاء والوزراء وكل شخص ينتمي إلى السلطة كالقضاة وأصحاب البريد وغيرهم. عُدَّ أبو العيناء عند أهل العلم والمعرفة من الظرفاء لكياسته ولسنه، وفصاحته، وتماجنه، وزندقته، وسخريته، وفكاهته وأجوبيته الذكيّة، وسرعة خاطره؛ قال عنه الشافعي: كان أبو العيناء حسن الكتابة، بليغ الخطابة، مليح الشعر، طلق اللسان بالذم والاستبطاء، سريع الجواب، حاضر النادرة، خبيث اللسان، في سب الناس والتعريض بهم. وقال عنه ياقوت الحموي بأنه فصيح بليغ، وقال عنه البغدادي بأنه كان أحفظ الناس وأفصحهم لساناً، وأسرعهم جواباً وأحضرهم نادرة⁽¹⁸⁾.

وإذا كان مدار حديثنا هو السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء؛ فلأنه اشتهر بنوادره في هذا المجال وكان يخالط كثيراً أصحاب الجاه والنفوذ، وكان المتوكل يتمنى منادمة أبي العيناء، ولكنه رفض ذلك، لا لعماء فحسب، وإنما لما عرفه فيه من جرأة تصل إلى حدّ الوقاحة، واتقاءً للسان الذي يلذع لذعا مؤذياً، واحتراراً من مجونه ورفقته وعبثه وسخريته التي نالت وزراء دولته دون استثناء، فأثر السلامة⁽¹⁹⁾.

فكيف تجلت هذه السخرية في نوادر أبي العيناء؟؟

الفصل الأول: السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء في سياقها اللغوي.

وقبل اللجوء في التحليل تجدر الإشارة إلى أن الخطابات التي تؤطر النوادر أنواع، ومنتجها أقل مرتبة من أصحاب السلطة. ومن الثابت أنّ المرتبة الاجتماعية تُنتج خطابها. والمرتبة السياسية تنتج خطابها، فما يسمح به الأمير، أو أحد من مرتبطة السلطة لنفسه في مخاطبة العامة لا يجوز أن يُقبل، لأنّ المراتب الاجتماعية لا تقبل أن يُخاطب الأقل شأنًا من هو أكبر شأنًا مخاطبة النّدية، ولكننا نجد في خطاب نوادر أبي العيناء العكس تماماً، فهو يخاطب أصحاب السلطة بندية مفتعلة ويتغلب عليهم، والسبب في ذلك ليس المرتبة وإنما قوة الحجة؛ لذلك ينتهج صاحب النادرة إستراتيجيات وطرائق معينة لتحقيق غايته؛ لأن هدفه يتمثل في الإقناع وتبليغ المقاصد، ولذلك فهو يتبع أساليب حجاجية متخيرة، ووسائل لغوية متفاعلة فيما بينها، خاضعة لترتيب وتدبير وتنظيم، والغرض منها حمل المحاج أو على تجاوز مرحلة التصديق والاقتناع إلى مرحلة ثانية يكون فيها المتلقي⁽²⁰⁾ متأثراً بما قيل له، وقد ينجم عن تأثره فعل مضاد وهذا ما يسمى بأفعال الكلام وقوة التأثير بالكلمة في التداولية.

ولكن لا تؤثر الكلمة إلا إذا كانت هناك افتراضات مسبقة عن الحالة الاجتماعية والنفسية للمتلقي كي يستطيع التأثير فيه، ويعمد صاحب النادرة إلى اتباع طريقة تمكنه من التأثير بالقول، وهذه الطريقة هي عمل عقلي مبني على أمور نفسية واجتماعية وتاريخية تتفاعل في ذهن المتكلم فيقوم باختيار الوسائل للوصول إلى هدف معين، يتطلب ذلك إعمال العقل والتركيز الجيد من خلال انتقائه للأساليب والأدوات التي تتناسب سياق استعمالها⁽²¹⁾. فالإستراتيجية مرتبطة بمبدأ الملاءمة فتكون ملائمة لبيئة المتكلم، وذلك من خلال الظروف المحيطة والسياقات، أما بالنسبة لمنطق الإستراتيجية قوامها «الغايات والطرق والوسائل»⁽²²⁾. ولاشك في أن أبا العيناء وهو ينتج نوادره قد اعتمد إستراتيجية معينة من أجل التفوق على من يوجه له الكلام، وهذا التفوق القولي يسمى الحجة، وهي عمود التداولية، ولكن حجة صاحب النادرة معتمدة على: السخرية من الآخر وكشف صفاته، وذكر الأمور غير المألوفة أو المعتادة، واعتماد أسلوب المبالغة في التصوير، والمفارقة والإدهاش والمفاجأة، فما هي سمات السخرية من السلطة في نوادر أبي العيناء في سياقها اللغوي؟.

(17) أبو سويلم، أبو العيناء محمد أبي القاسم (ص17)

(18) المرجع السابق، (ص46)

(19) المرجع السابق، (ص48)

(20) البهلول، الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجرياً مقارنة أسلوبية حجاجية (ص333)

(21) الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية مقارنة تداولية (ص103)

(22) المرجع السابق، (ص103)

المبحث الأول: سمات السخرية من السلطة

1- الصورة:

أ- التصوير الهزلي للحدث:

إن التصوير الهزلي للحدث يخلق عنصر المفاجأة والإدهاش، ولا شك في أن «السخرية باعتبارها نوعاً من الرؤية إلى العالم، لا تتستر على النقص وتداريه، بل هي تقضح الاعوجاج وترغمه على الظهور بصراحة (...)». فالفضح كآلية من آليات إنتاج السخرية يتغيا الإبحار عبر عاهات الإنسان ونزواته ومتهاته الشخصية.. لدفعه إلى اكتشاف مفارقاته، ومن ثم التخلي عن خيالاته، وبذلك فهو يخدم السخرية بما هي كسر لانتفاخ الأنا»⁽²³⁾، ويمكن أن نمثل لذلك بهذا الحدث الهزلي من خلال النادرة الآتية: «قال ابن مكرم لأبي العيناء: أحسبك لا تصوم شهر رمضان! فقال ويحك! وتدعني امرأتك أن أصوم»⁽²⁴⁾، فمن المعروف أن شهر رمضان حدث عظيم يتكرر كل سنة ولا يمكن للمسلم أن ينتهك حرمة شهر رمضان حتى لو كان من العاصين، ولكن ابن المكرم أراد أن يتهم أبا العيناء، فرد عليه رداً ساخراً ولاذعاً، فهو لم ينف التهمة عن نفسه بل أثبتتها ولكن ألقها بعرض ابن المكرم، ومقتضى القول التداولي أو الكلام المتضمن في هذا الحدث الساخر هو: إذا كنت قد انتهكت حرمة الدين فإن زوجتك انتهكت حرمة عرضك، فابن المكرم اتهمه في دينه فرد عليه أبو العيناء باتهامه في عرضه. فكانت حجة الحدث المضاد أقوى من الحجة الأولى، وقوة الحجة الأولى هي أن من يعصي الله يغفر له الذنوب إذا تاب، ولكن كيف سيغفر ابن المكرم لزوجته إذا انتهكت عرضه؟! فكما هو ملاحظ فعلى الرغم من سيطرة لسان أبي العيناء فإنه كان يغلب في كثير من المواقف.

ب- تصوير الشخصية الخلقية والخلقي:

وفي التصوير الخلقى بكسر الخاء نمثل بمايلي: «ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهو يلعب بالشطرنج، فقال: في أي الحيزين أنت؟ فقال: في حيز الأمير أيده الله. وغلب عبيد الله فقال: يا أبا العيناء؛ قد غلبنا، وقد أصابك النذب خمسين رطلاً ثلجاً. فكن أنت في حيلتها. قال: فقام ومضى إلى ابن ثوبة، وقال: إن الأمير يدعوك؛ فلما دخلا قال: أيد الله الأمير، قد جئتكم بجبل همذان وما سيزان، فخذ منه ما شئت، فضحك حتى استلقى»⁽²⁵⁾، أي أن أبا العيناء دخل في صف الأمير وهو يلعب، فخر في لعبة الشطرنج وكان الرهان على خمسين رطلاً من الثلج، فلما أراد الأمير توريط أبي العيناء في الخسران، قام بإحضار «الكاتب المعروف أبي العباس بن ثوبة وكان ضخماً الجثة»⁽²⁶⁾، ونعته بجبل همذان وماسيدان وهي منطقة قرب العراق، وغرضه السخرية من طلب أمير المؤمنين، ومقتضى القول هو استهجان طلب المتوكل؛ إذ كيف يطلب من رجل ضريع وضعيف البنية أن يحضر له خمسين رطلاً من الثلج، ومن أين سيحضرها؟ والجواب الضمني هو الاستهجان والرفض، ولكن رفضه جاء بفرض صيغة المقارنة بين الصورة الخلقية لأبي ثوبة والصورة الخلقية لأبي العيناء نفسه، وهما صورتان متناقضتان تماماً، الأمر الذي يضيفي روح الفكاهة والطرفة والهزل على مجلس الأمير، وفي الوقت نفسه سخرية ضمنية من الكاتب المعروف ومن الأمير؛ لأنها تستبطن مفارقة خلقية، ويعتبر هذا التصرف حجة استهجانية، وهي آلية من آليات الحجاج التي «تقوي الحجة وتؤمن لها منزلة في عقول المتخاطبين وعواطفهم حتى يحصل فعلها ويُدرَك أثرها»⁽²⁷⁾، لذلك غضب منه أبو ثوبة وشتمه لأنه كذب عليه وأحضره إلى مجلس أمير المؤمنين من ناحية وسخر منه من ناحية أخرى كونه بديناً، ولكن الأمير ضحك حتى استلقى، وهو لا يعي أن

(23) الكنوسي، بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي(35)

(24) ابن أبي سعد، نثر الدرر. (ج3/207)

(25) المرجع السابق. (ج3/197)

(26) الصفار، أبو العيناء البصري الطريف (ص60)

(27) أبو الطوف، بلاغة الخطاب الحكائي(ص53)

السخرية موجهة إليه، فأبو ثوبة كان صورة خلقية ووسيلة استخدمها أبو العيناء من أجل أن يسخر من المتوكل، وهي من قبيل السخرية الاستكارية.

ومن أمثلة الصورة الخلقية الساخرة أيضا هذه النادرة المضحكة:

«قال له ابن مكرم: كان الكلي صاحب البريد يحب أن يشم الخراء فقال: لو رآك لترشفك»⁽²⁸⁾، وهي سخرية من المتكلم ومقتضاها أن خلقتك كالعائط وكما هو ملاحظ هناك بذاءة في ردود أبي العيناء، والأمر نفسه نجده في تشبيه خلقة المتكلم بصورة الشيطان في النادرة التالية:

«وقال له السدري: أشتي أن أرى الشيطان، فقال: انظر في المرأة»⁽²⁹⁾؛ أي إذا أردت أن ترى الشيطان فانظر إلى نفسك، ولعل عبارة "انظر في المرأة" وإن كانت تبدو مضحكة لأنه نعت بالشيطان فإن هذه السخرية تستبطن أيضا معاني خفية مقتضاها أن السدري يشبه الشيطان خلُقًا وخلقًا؛ ولأشك في أن هذه الردود السريعة الخارقة لأفق التوقع هي التي جعلت أبا العيناء متميزا عن أقرانه من ناحية، ومن ناحية أخرى تهدف هذه النوادر إلى كشف بواطن الناس، فالأول نعت بالنتانة والثاني نعت بالمعصية والتمرد، وعلى الرغم من أن أبا العيناء يصف الخلقة، فإنه يركز دائما على الخلق.

إن جرأة أبي العيناء تحمل في طياتها وقاحة صريحة ليس مع أصحاب السلطة والنفوذ فقط، بل إنه يذم نفسه أيضا، فهو ينعت نفسه بالعمى، من ذلك «أن الخليفة المتوكل قال يوما لأبي العيناء: لا تكثر الوقعة بين الناس، قال: إن لي في بصري شغلا، قال ذلك أشد لحقك على أهل العافية"، وهذه الرواية قد تعني أن المتوكل يرى في مزاح أبي العيناء صورة لحقده على المبصرين، وهو تعليل مقبول إذا كان أبو العيناء قد عرف بالظرف بعد عماه فقط، أما وأنه قد جبل على الظرف والمزاح منذ صغره وصباه، فإن ذلك لا يفسر بالعاهة الجسمية فحسب، وإنما نضيف إليه أن الظرف طبيعة جبلت عليها نفسية أبي العيناء، وزاده عماه قدرة عليها، وفضلا عن هذا فإن ظرف أبي العيناء وسخريته جزء من شخصيته التي حببت إليه الناس، وأنه عُرف بها قبل عماه، وربما زادت بعد عماه، ليس لما تسببه هذه العاهة وما قد تتركه في نفس صاحبها فحسب، بل بسبب تقدم السن والثقافة العالية التي مكنت أبا العيناء من التلاعب بالألفاظ، وتوجيه السؤال الموجه إليه»⁽³⁰⁾، بطريقة عكسية تجعله يتفوق على خصمه، بل يسخر منه نظرا لما يتميز به من حسن البديهة.

أما التصوير الخُلقي: فلاشك في أن أبا العيناء في معظم نوادره يوجه نقدا لادعا للسلطة الحاكمة بجميع عاملها من الخليفة إلى الحاجب، وقد كانت نوادره مع الخليفة المتوكل ملمحا بارزا فيما نقل عنه من ملح ونوادر، وعلى الرغم من أنه «من أحضر الناس جوابا وأجودهم بديهة وأملحهم نادرة»⁽³¹⁾، فإنه يضم سخرية متضمنة في القول، ويمكن أن نمثل للتصوير الخُلقي بما يلي:

«قال له المتوكل: بلغني أنك رافضي. قال: وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة، ومنشئي في مسجد جامعها، وأستاذي الأصمعي. وليس يخلو القوم إن كانوا أرادوا ديناً أو دنيا، فإن كانوا أرادوا الدين فقد أجمع المسلمون على تقديم من أخرجوا وإيمان من كفروا؛ وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنت وأباؤك أمراء لا دين إلا بكم، ولا دنيا إلا معكم»⁽³²⁾ أراد المتوكل أن يبرز أخلاق الروافض -وهم فرقة شيعية متطرفة- ويلصقها بأبي العيناء إلا أن ردّه كان عاكسا لتصوير أخلاق بني العباس في قوله: "وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنت وأباؤك أمراء لا دين إلا بكم، ولا دنيا إلا معكم"؛ يعد الوصف الخُلقي الذي قدّمه أبو العيناء لونا من التصوير الخُلقي القائم على المفارقة، إذ حول التهمة الخُلقية الموجهة إليه إلى مناظرة عكسية ردا على المتوكل؛ أي إذا كنت رافضيا فإنني أدين بدينك، وأعيش

(28) ابن أبي سعد، نثر الدرر (ج3/210)

(29) المرجع السابق (ص206).

(30) الصغار أبو العيناء البصري الظريف (ص/58)

(31) المرجع السابق. (ص58)

(32) ابن أبي سعد، نثر الدرر (ج3/215)

في دنياك؛ أي أنه على دين بني العباس، فإن كانوا على السنة فهو معهم وإن كانوا روافض فهو معهم، لأنه من مواليهم، وإذا كان ردّ أبي العيناء بهذه الطريقة الساخرة فلأنه يضر في نفسه ما فعله المتوكل بالعلويين الذين اضطهدهم وكان يسخر منهم في مجلسه، ويعرف أبو العيناء أن هذه التهمة خطيرة، لذلك كان ردّه حجة قوية أسكتت المتوكل.

والمتوكل في كثير من المواقف كان يخاف وقاحة أبي العيناء، «وكانت أخبار لسانه تصل إلى المتوكل، ويصرّح الخليفة بخوفه من هذا اللسان. قال المتوكل لأبي العيناء: إنّي لأفرق من لسانك، فقال أبو العيناء: "يا أمير المؤمنين: الكريم ذو فرق وإحجام واللئيم ذو وقاحة وإقدام"، وفي موقف آخر قال المتوكل: ادفعوا له عشرة آلاف درهم "انقاءً للسانه"، فقال أبو العيناء: قد قتلتني والله يا أمير المؤمنين؛ فقال المتوكل: ويحك! وكيف ذلك؟ قال: لأن من خفته لا يعيش»⁽³³⁾؛ إن استهزاء المتوكل جعله يعتقد أن أبا العيناء لا يريد أن يكف من انطلاق لسانه؛ لأن إسكاته بالدرهم يعني قتله. ولكن مقتضى كلام أبي العيناء كان سخرية من أخلاق المتوكل؛ أي أن أمير المؤمنين عندما يخاف شخصا يقتله حقيقة، فهو لا يساومه بالمال، فالكلام المتضمن في القول هو أنك يا أمير المؤمنين غدار.

ومن ذلك أيضاً ما قيل في صاعد بن مخلد الذي كان رجلاً نصرانياً ثم أسلم، وارتقت به الحال إلى الوزارة حيث استوزره الموفق أبو أحمد بن المتوكل، فوقف أبو العيناء على بابهِ -أيام وزارته- فقيل له يصلي، فانصرف، وعاد مرة أخرى فقيل له: إنه يصلي أيضاً، فقال معلقاً تعليقاً فيه سخرية ومزاح وجراً ولم يمنعه كون صاعد وزيراً فقال: لكل جديد لذة، يريد أنه جديد العهد بالإسلام وأنه كان نصرانياً⁽³⁴⁾، ففي كل مرة يجده يصلي فأزعجه ذلك فكان رده يستبطن سخرية لاذعة، ومقتضاها أن الوزير يصلي لأن المتوكل استوزره ويريد أن يثبت للجميع أنه مسلم فعلاً ولكنه ليس كذلك، فهو حديث عهد بالإسلام، وعندما يتقدم لن يكون حريصاً على الصلاة بهذه الصفة، وهذا ما قصده أبو العيناء من قوله "لكل جديد لذة"، وبما أن أبا العيناء يضر دائماً خبثاً معرفياً ونية غير سليمة، فإنه لا يصدق أخلاق البشر.

إن سخريته من أخلاق أصحاب السلطة كثيرة، فهو كان يذمهم دائماً لفسادهم، وقد أنشأ كلاماً على لسان أعرابي لكي يقول من خلاله ما لا يقال في السخرية من أخلاقهم، كقوله والكلام كلامه وليس للأعرابي: «لقيت أعرابياً من أهل البادية، فقلت له: ما عندك من خبر البلاد؟ قال: قتل أرضاً عالمها، قلت فما عندك من خبر الخليفة؟ قال: تبجح في عزّة، فضرب بجرانه، وأخذ الدرهم من مصره، وأرغف كل قلم خيانتته»⁽³⁵⁾، وهنا يشير أبو العيناء إلى ما يحدث في البلاد من ظلم وقتل للعلماء، والسخرية من انغماس الخلفاء في العز، كأنه لا شأن لهم من أمر الرعية، ولا شك في أن أبا العيناء كان العين الكاشفة الفاضحة للسلطة.

2- الحوار: (الحجاج في الحوار):

يعلن الحوار دوره في تشييد النادرة، ولكن قيمة الحوار في النادرة يرتكز على قوة المحاجة «ولأن الممارسة اللغوية بحسب "غرايس" نشاط تواصلية عقلاني يهدف إلى التعاون ما بين المتخاطبين، فإنها تستند إلى قواعد صادرة من اعتبارات عقلية تتدبر السلوك التخاطبي وتجعله ناجحاً ومنظماً»⁽³⁶⁾، لذلك «يعتبر الحوار مكوناً أساساً من مكونات السخرية والحجاج، وهو الذي يفسح المجال لعرض الأفكار والحجج، أو دحض أفكار الخصم عبر تفخيخ الخطاب»⁽³⁷⁾، ونستشف ذلك من النادرة التالية التي يتحاور فيها أبو العيناء مع الخليفة المتوكل كما يلي:

«وقال له المتوكل يوماً: هل رأيت طالبياً قط حسن الوجه؟

(33) أبو سويلم، أبو العيناء محمد أبي القاسم (ص225).

(34) الطريف، أبو العيناء البصري، (ص61)

(35) ابن أبي سعد، نثر الدر (ج3/220)

(36) الكنوسي، بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي. (ص35)

(37) أبو الطيف بلاغة الخطاب الحكائي إستراتيجيات الحجاج في كلية ودمنة (ص68)

قال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت أحداً يسأل أعمى عن هذا!

قال: لم تكن ضريراً فيما سلف، وإنما سألتك عما تقدم.

قال: نعم! رأيت ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه، ولا ألطف شمائل.

فقال المتوكل: نجده كان مؤجراً وكنت تُقَوِّد عليه.

فقال أبو العيناء: معاذ الله يا أمير المؤمنين أتراني أترك موالي، وأُقَوِّد على الغرباء!

فقال له المتوكل: أسكت يا مأبون. فقال له: مولى القوم منهم، وكان ولاء أبي العيناء لأبي العباس.

فقال المتوكل: قاتله الله! أردت أن أشتقي منه فاشتقي مني.⁽³⁸⁾

لم يعبأ أبو العيناء من المتوكل بل قال كلمته بكل جرأة وصراحة، لذلك يعلن المتوكل خسارته أمام محاجة أبي العيناء؛ لأن حجة أبي العيناء أقوى؛ فالمتوكل أراد أن ينتقص ويحط من قيمة أبي العيناء من خلال الخطاب الحوارى الساخر، وقد كان أبو العيناء كيساً فطناً بحيث تحجج بالعمى في المرة الأولى، وعندما ألح عليه المتوكل بحجة أن عماء كان في مرحلة متأخرة؛ أي أنه كان مبصراً فيما سلف: "قال: نعم! رأيت ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه، ولا ألطف شمائل"، ولكن المتوكل كانت له غاية يريد الوصول إليها من أجل التشقي من أبي العيناء لأنه سليل اللسان وكثير الانتقاص من الآخرين، لذلك أراد المتوكل أن يحط من قيمته.

ولكن المفاجأة التي لم يكن يتوقعها المتوكل هي الرد الصادم الذي رده أبو العيناء: أي أنه بين للخليفة بأنه ينتمي إلى بني العباس، فهو من مواليتهم، وإذا كان الأمر كذلك فإن أي انتقاص يشوبه هو انتقاص لبني العباس وللخليفة ذاته، فأبو العيناء لم يستطع أن يقول له ذلك صراحة وإنما قال له: "مولى القوم منهم"، ففهم المتوكل المقصود الضمني، لذلك أعلن انهزامه بقوله: "قاتله الله! أردت أن أشتقي منه فاشتقي مني"⁽³⁹⁾ ويسمى هذا النوع من الحجج في العرف التداولي بالحجة الدحضية، أي الدفاع عن أطروحة بإثبات خطأ أطروحة أخرى.⁽⁴⁰⁾

وكما لاحظنا وسنلاحظ أن أبا العيناء دائماً يدحض حجة الآخر مهما كانت رتبته الاجتماعية، سواء أكان ذلك عن طريق الحوار أم غيره.

3- المفارقة:

يستند مفهوم المفارقة الساخرة إلى التعارض الدلالي والحضور المسبق للقصدية: "إنها تعارض بين ما يقوله شخص ما وما يريد إسماعه، إن القيمة التداولية لمتوالية ما، أكثر من قيمتها الدلالية هي التي تجعلنا نحس أنها ساخرة، فأن تسخر معناه أساساً أن تستهزئ أكثر من أن تتكلم بالنضاد." السخرية اللفظية، باعتبارها مجازاً يستند إلى تعارض دلالي، فهي قول ضد المراد، هذا ما يجعل السخرية تنفتح على المفارقة، وتمتد خارج حيز التعارض البسيط. وقد قدمت نبيلة إبراهيم في مقال لها تعريفاً للمفارقة باعتبارها مرادفة للسخرية حيث تقول: "إن المفارقة هي الاستخدام المراءوغ للغة، وهي شكل من أشكال البلاغة، ويندرج تحتها المدح في صيغة الذم، والذم في صيغة المدح".

ويقال إن الكلمة لم تظهر في اللغة الإنجليزية بوصفها مصطلحاً إلا في أوائل القرن السادس عشر، ولكنها لم تجد سبيلها إلى الاستعمال العام إلا في نهاية القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر، وكانت تعني أن يقول الإنسان عكس ما يعنيه، كما تضمنت معنى السخرية.

(38) ابن أبي سعد، نثر الدر (ج3/195)

(39) المرجع السابق، (ج3/195)

(40) أبو الطوف، بلاغة الخطاب الحكائي، إستراتيجيات الحجج في كلية ودمنة (ص55)

وتأسيساً على ما سبق، فالقاسم المشترك بين السخرية والمفارقة ما عبرت عنه الكاتبة بالاستعمال المراءوغة للغة، الذي يتجلى أحياناً في صورة قلب دلالي أو تعارض⁽⁴¹⁾، وخير مثال على المفارقة هذه النادرة:

«قال له المتوكل يوماً: إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟ فقال: ما أحسنوا وأساءوا؛ فقد رضي الله عن عبدٍ فمدحه؛ فقال: "نعم العبد إنه أوابٌ" وغضب على آخر فزناه. قال: ويلك أئزني الله أحداً؟ قال: نعم. قال الله تعالى: ﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ ﴿الْقلم: 13﴾، والزنييم الدخيل في القوم وليس منهم⁽⁴²⁾، والمفارقة اللفظية هنا في فهم المتلقي وفيما قاله أبو العيناء، حيث ذكر لفظ "زناه" الذي ظاهره يفهم من الزنى ولكنه كان يقصد زنييم أي الدخيل.

ومن المفارقات العجيبة أن المتوكل سأل أبا العيناء عن قصصه المعروف "بالجعفري"، وهو سؤال غريب، لأنه من المفروض أن يكون هذا السؤال موجهاً لشخص يبصر كي يصف له جمال قصره: «ودخل على المتوكل وهو بيني الجعفري؛ فقال له: يا أبا العيناء: كيف ترى دارنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الناس بينون الدور في الدنيا، وأنت تبني الدنيا في دارك، فاستحسن كلامه⁽⁴³⁾. حيث تشكلت مفارقة من كلام أبي العيناء أيضاً، إذ إنه أجابه بما هو يحسه المتوكل في نفسه لذلك استحسن كلامه، وظاهر الكلام فيه مدح للقصر ولكن باطنه يحمل سخرية من المتوكل المولع بحب الدنيا، مع العلم أن جميع ما مر بنا من نوادر هي مفارقات لأن ظاهرها غير باطنها.

المبحث الثاني: آليات السخرية من السلطة

إن الآلية هي وسيلة لتوصيل المعنى، ومن هذه الآليات نجد الأسلوب الشعري والتناص.

1- آلية الأسلوب الشعري:

وفيها يقوم صاحب النادرة باتباع التمثيل بالتخييل الشعري كي يقوّي حجته، وتسمى الحجة هنا بحجة التمثيل التخيلي، ويمكن أن نمثل لها بهذه النادرة:

«قال الصولي: حدثني أبو العيناء قال: أدخلت على المتوكل، فدعوت له وكلمته فاستحسن كلامي، وقال: بلغني أن فيك بذاء. قلت: يا أمير المؤمنين؛ إن يكن الشر الذي بلغك عني ذكر المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فقد زكى الله تعالى وذم؛ فقال: نعم العبد إنه أواب. وقال: هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. وقال الشاعر:

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ... ولم أذم الجبس اللئيم المذمماً

فقيم عرفت الخير والشرّ باسمه ... وشقّ لي الله المسامع والفما

وإن كان الشر الذي بلغك عني كفعل العقرب التي تلدغ النبي والذمي بطبع لا بتمييز؛ فقد صان الله عبدك عن ذلك.⁽⁴⁴⁾ يحاول أبو العيناء هنا على الرغم من استحضاره للآية الكريمة، أن يؤكد المعنى بإضافة أبيات من الشعر من أجل إقناع المتلقي (المتوكل)، ولعل استحضار آلية الشعر في هذا المقام ليس إبرازاً للتفنن في القول بقدر ما هو تمهين للحجة من أجل دفع التهمة عنه، وهو يرى أن من ذمه شخص لا يعرف الخير من الشر، بل إن الطبع عنده كطبع العقرب اللدغ فقط ولا يميز بين المحسن والمسيء، وبإستدلالة بالشعر يثبت أن هذا الذي ذمه كالدابة التي لا تميز الخير من الشر على الرغم من أن له مسامح وفما؛ وهو مقتضى القول ومفاده إذا خلق الله لك لساناً وأذنين فينبغي أن تميز عندما تسمع قبل أن تتنطق بإيذاء الآخرين. وإذا أنت لم تميز فأنت لا تعقل كالحيوان؛ بل كالعقرب التي طبعها اللدغ دون تمييز لأنها لا تعقل.

2- آلية التناص:

(41) كنوسي، بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي. (35)

(42) ابن أبي سعد، نثر الدرر (ج3/195)

(43) المرجع السابق (ج3/215)

(44) المرجع السابق (ج3/201)

والآلية الثانية من آليات السخرية من السلطة نجد التناص، أي استحضار نصوص قادمة من سياقات أخرى للاستدلال على ما يقول. وتسمى أيضا حجة التمثيل، ومن خلال استكشافنا لمدونة أبي العيناء نجده يتناص كثيرا في معظم نوادره بالقرآن الكريم. وهو تناص ديني.

أ- التناص الديني:

نلاحظ أنه في معظم نوادر أبي العيناء يتناص مع القرآن العظيم، كاستدلال وحجة قوية يعضد بها مقولته فتخرس خصمه، وهذا يدل على ثقافته الدينية الواسعة وحسن اختياره للآيات في المواقف المناسبة للحديث، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة يستدل فيها أبو العيناء بالقرآن الكريم. ومن أمثلة التناص الديني أيضا هذه النوادر التي يسخر فيها من أصحاب السلطة والنفوذ: «وقدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية؛ فدعاه إلى منزله وأطعمه وجعل الرجل يكثر الكذب، فالتقت أبو العيناء إلى من كان معه فقال: نحن كما قال الله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ﴾» (المائدة: 42)، وهو بذلك يريد أن يفصح المتكلم بطريقة غير مباشرة، ومقتضاها أن صاحب الوليمة يكثر الكذب، وبما أنه كاذب فإن ماله حرام، ولكن عبارة «أكالون للسحت» لا يقصد بها الضيوف، وإنما يقصد بها صاحب الوليمة، ومقتضى القول أن حاشية السلطان كلامهم كذب ومالهم حرام. والنوع الثاني من التناص يتجلى في سرعة البديهة وفطنة أبي العيناء الذي كان يرد على القاضي وهو من رجال السلطة في النادرة التالية:

«ودخل على إسماعيل القاضي، وجعل يرد عليه إذا غلط في اسم رجل وكنية آخر، فقال له بعض من حضر أترد على القاضي أعزه الله؟ كأنك أحطت بما لم يحط به؟ فقال: نعم، لم لا أرد على القاضي؟ وقد ردّ الهدهد على سليمان؟ فقال: "أحطت بما لم تحط به" وأنا أعلم من الهدهد، وسليمان أعلم من القاضي».⁽⁴⁵⁾

ومن المتعارف عليه أنه لا يجوز الرد على القاضي، ولكن أبا العيناء استطاع أن يخرج من هذا المأزق بالرد على من حاجوه بحجة أقوى؛ فقد حاجهم بالقرآن العظيم من أجل إسكات الخصم، ويندرج الاستدلال بالقرآن العظيم ضمن ما يسمى في التداولية بحجة الشاهد.

وقوة الحجة تتمثل في أنه فاضل بينه وبين الهدد وبين النبي سليمان وبين القاضي، والقاضي في هذا المقام كان يخطئ كثيرا، وهذا ما أزعج أبا العيناء وجعله يرد عليه ويصحح الخطأ.

وتستمد نوادر أبي العيناء -الساخرة من أصحاب السلطة والنفوذ- «حجاجيتها من ارتكازها على قيم ومواضع مفضلة عند المتلقي الذي يخاطبه، سواء أكان فردا أم جماعة، والقيم والمواضع ليست حججا بالمعنى التقني للفظ، بل هي المحتوى الذي ينتظم في علاقات أو قوالب تسمى الحجج. ولا يمكن أن تقوم هذه الحجج وتعمل في خطاب ما دون هذا المحتوى الذي يمثل الاتفاق المسبق بين المتكلم والمتلقي»⁽⁴⁶⁾؛ لأن الاتفاق المسبق أو المسلمات المسبقة لا بد أن تكون مشتركة بين المتكلم والسامع كي يقتنع بالحجة، ولذلك كان أبو العيناء في معظم نوادره يستدل ويحاجج بالقرآن العظيم، بل إن سرعة بديهته تجعله يحسن اختيار الآية التي تعبر عن الموقف تماما، وهذا هو الذي يذهل الخصوم ويسكتهم، لأنهم لا يستطيعون الرد عليه طالما جاءهم بما يعرفونه، وقداسة القرآن أعظم تسكتهم وحسن اختيار الآية يقنعهم.

3- سرعة البديهة وحجية الجواب:

«حمله بعض الوزراء على دابة، فانتظر علفها، فلما أبطأ عليه قال: أيها الوزير هذه الدابة حملتني عليه أو حملته علي»⁽⁴⁷⁾؛ أي إذا كنت قد ساعدتني في حملي على هذه الدابة فلا تجعلها عالة علي لأنها تتطلب علفا لتعيش، فأدت سرعة بديهته واقتضاب

(45) المرجع السابق (ج3/217)

(46) مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ (ص66)

(47) ابن أبي سعد، نثر الدر (ج3/195)

جوابه الغرض المنشود من ناحية والاستهزاء من الوزير من ناحية أخرى، وكأنه يقول له ما هذه المساعدة؟ لأن معروفك لم يكتمل، بل إن الدابة أصبحت حملاً ثقيلاً على أبي العيناء؛ فسرعة بديهة أبي العيناء تكمن في سرعة إيجاد الرد والجواب مباشرة دون تفكير.

«قال له الوزير أبو الصقر: ما أخرجك عنا؟ قال: سرق حماري. قال: وكيف سرق؟ قال: لم أك مع اللص فأخبرك».⁽⁴⁸⁾ وتتجلى سرعة البديهة في الحجة الدامغة وفي إسكات المتكلم، وهو بذلك يسخر من سؤاله ضمناً، لأن سؤال الوزير غير منطقي فصدمه بإجابة مسكتة.

«وقال له عبد الله بن سليمان: إن الأخبار المذكورة في السخاء وكثرة العطاء أكثرها تصنيف الوراقين، وأكاذيبهم قال: ولم لا يكذبون على الوزير أيده الله.»⁽⁴⁹⁾ وتتجلى سرعة بديهة أبي العيناء في الرد المعاكس، وكأنه يقول: إن كتب الوراقون غير ذلك سيعاقبون، لذلك عليهم أن يكذبوا في مدح سخاء الوزراء، ولعل جواب أبي العيناء يجسد نقداً وسخرية أعمق لذوي النفوذ والسلطان وإلى السياسة برمتها وما تمر به من تزييف للحقائق.

الفصل الثاني: السخرية من السلطة في سياقها المقامي

المبحث الأول: السخرية المضمره وقرائنها

السخرية في قالب المدح:

إن السخرية أسلوب من الأساليب الفنية الصعبة؛ إذ إنها تتطلب التلاعب بمقاييس الأشياء تضخيماً أو تصغيراً، تطويلاً أو تقزيماً، هذا التلاعب يتم ضمن معيارية فنية هي تقديم النقد اللاذع في جو من الفكاهة والإمتاع. غير أن أسلوب السخرية يختلف من عصر إلى عصر، ويتفاوت من كاتب إلى آخر؛ فالأدب الساخر لا يعني الضحك من أجل الضحك، فهذا يسمى تهريجاً بل هو كوميديا سوداء تعكس الألم الداخلي. تقدم بقالب ساخر يرسم البسمة على الوجه، ويضع خنجراً في القلب، الأمر الذي يجعل القارئ يبكي من فرط الضحك، وفي الوقت نفسه يضحك من فرط الألم⁽⁵⁰⁾ وتأتي السخرية مرة صريحة ومرة أخرى ضمنية، ومن بين الأساليب الضمنية أن تأتي السخرية هجاء في قالب المدح، ويمكن أن نمثل بالنادرة التالية:

«ودخل أبو العيناء على محمد بن عبد الملك، فجعل لا يكلمه إلا بأطرافه؛ فقال: إن من حق نعمه أن تجعل البسطة لأهل الحاجة إليك، فإن من أوحش انقبض عن المسألة، وبكثرة المسألة مع النُجج يدوم السرور. فقال له محمد: أما إنني أعرفك فضولياً كثير الكلام، وأمر به إلى الحبس؛ فكتب إليه: قد علمت أن الحبس لم يكن من جرم تقدم إليك، ولكن أحببت أن تريني مقدار قدرتك علي؛ لأن كل جديد يستلذ، ولا بأس أن ترينا من عفوك حسب ما أريتنا من قدرتك. فأمر بإطلاقه، ثم لقيه بعد أيام، فقال: يا أبا العيناء، ما تزورنا حسب نيتنا فيك؟ فقال: أما نيتك فمتأكدة، ولكن أرى أن الذي جدد الاستبطاء فراغ حبسك»⁽⁵¹⁾، إن قول أبي العيناء «أحببت أن تريني مقدار قدرتك علي؛ لأن كل جديد يستلذ» سخرية وهجاء في قالب مدح؛ ففي الظاهر يشكره ويمدحه، ولكنه في الحقيقة يضمّر هجاءه وذمه؛ وقصدية القول هي: «إنك قادر مقتدر ولكنك لا تقدر إلا على الضعفاء مثلي». وكذلك قوله: «أما نيتك فمتأكدة، ولكن أرى أن الذي جدد الاستبطاء فراغ حبسك»؛ ويقصد بظاهر «نيتك متأكدة» مدحاً ولكنه في الحقيقة يسخر منه؛ أي أنه يريد أن يقول إنه لا يؤتمن له جانب، فكما حبسه في المرة الأولى سيعيد الكرة مرة أخرى.

(48) سير أعلام النبلاء (ص309)

(49) ابن أبي سعد، نثر الدر (ج3/197).

(50) زاده، الأدب الساخر، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية (ص102).

(51) ابن أبي سعد، نثر الدر (ج3/212)

فأبو العيناء لا يأتين محمد بن عبد الملك لما رأى منه من تصرف تجاهه، ولذلك عندما أطلق سراحه لم يعد إليه أبداً. ولذلك تبدو السخرية في فنّ القول الذي ينم عن ألم دفين ويشف من كرب خفي لجأ إليه أبو العيناء ليداوي ألمه بالضد ويشفي كربيه بالنقيض، ومن هنا كان الألم الذي يشعر به المبدع وعدم قدرته على إلغاء أسباب هذا الألم هو الدافع وراء هذه السخرية.

أ- التعريض والمخالطة:

ومن أساليب السخرية المضمرّة التعريض، وهو التلميح دون التصريح، كأن يحمل الكلام في طياته تورية، والمخالطة التي نقصدها المراوغة والمخادعة⁵²، ويمكن أن نستدل على ذلك بهذه النادرة:

«كان نجاح بن سلمة قد ضمن الحسن بن مخلد وموسى بن عبد الملك بمال عظيم للمتوكل؛ فاحتال عبيد الله بن يحيى حتى يضمناه بذلك وعاد عليه الأمر، ثم اغتال موسى بن عبد الملك فقتله، فبلغ الأمر المتوكل، فأكبره وهم بالإيقاع بموسى، فتلطف عبيد الله بن يحيى وعمه الفتح بن خاقان حتى سكن غضبه، واتفق ذلك في ولادة المعتز فاشتغل باللهو والسرور بذلك، فدخل أبو العيناء بعد ذلك على المتوكل، وكان واجداً على موسى بن عبد الملك؟ فقال: ما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: ما قاله الله عز وجل: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾»

«القصص: 15». واتصل بذلك بموسى فلقية عبيد الله بن يحيى. فقال: أيها الوزير، أردت قتلي فلم تجد حيلة إلا إدخال أبي العيناء على أمير المؤمنين مع عداوته لي؛ فعاتب عبيد الله أبا العيناء على ذلك فقال: ما استعذبت الوقعة فيه حتى ذمت سريرته فيك، (...) وسار إلى موسى، فاعتذر كل واحد منهما إلى صاحبه وافترقا عن صلح، فلقية بعد أيام بالجعفري فقال له: يا أبا عبد الله؛ قد اصطلحنا، فما لك لا تأتينا؟ قال: كما قال الله عز وجل ﴿أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ «القصص: 19». قال موسى: ما أرانا إلا كما كنا.⁽⁵³⁾ فأبو العيناء يتوارى خلف أسلوب التورية والمخالطة والتعريض، فذكره للآية يعد من قبيل التورية، ويقصد به أن موسى قتل نفساً ظلماً لذلك ينبغي تجنبه لأنه قاتل، فأبو العيناء يريد دائماً تذكير موسى بن عبد الملك بجرمه.

إن أبا العيناء لم يصرح صراحة بخبر القتل، وإنما اقتصر على ذكر الآية فقط، وبما أن القاتل اسمه موسى فقد استطاع من خلال سرعة البديهة أن يستحضر الآية على الرغم من أن السياقين مختلفان؛ فسياق موسى النبي كان في محضر الدفاع، بينما موسى بن الخليفة كان ظالماً. وبعد تصالح أبي العيناء معه سخر منه بذكر آية أخرى من نفس سورة القصص التي تتحدث عن موسى عليه السلام والرجل الفرعوني.

ومن أمثلة المخالطة والتعريض هذه النادرة: «وقال له يوماً عبيد الله بن يحيى الوزير -في أمر شهد عليه فيه بشهادة؛ فقال أبو العيناء: لو كان هذا في غير دولتك لتمنيت له دولتك. فقال: إن الشهود عليك كثير. قال: أكثر منهم الذين شهدوا عليك بإغلاء السعر والزيادة فيه؛ فإن صدقتهم علي فصدقهم عليك»⁽⁵⁴⁾. يتصف أبو العيناء بالذكاء المفرط وسرعة البديهة، فعندما وجهت له هذه التهمة عارضها بتهمة موجهة للوزير، وقد فعل ذلك لكي يسكت خصمه، وسواء أكان الوزير فعلاً قد رفع في السعر أم لم يرفع، فإن أبا العيناء أراد أن يقول: إذا كنت قد أغليت السعر فإن الشهود صادقون، وبما أن الوزير أنكر هذه التهمة، فقد أثر أبو العيناء معارضة تهمة بتهمة، وكأنه يقول للوزير: إذا كنت تتهمني فأنت أيضاً متهم، وإذا كنت تستدل بالشهود فصدق ما يقولون عنك أيضاً.

كان أبو العيناء دائماً ينتصر لنفسه في المواقف الحرجة، بأسلوب ساخر يضمّر نقداً لا ذعاً. وسخرية تستبطن نوعاً من الهجاء ولكن بفارق، وهو أن للهجاء لساناً حاداً وصريحاً، في حين أن الغاية من السخرية هي الاستهزاء الذي يضمّر الاستحقار.

(52) ابن منظور، لسان العرب.

(53) الفيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر (ص 107-108).

(54) ابن أبي سعد، نثر الدر، (ج3/208).

المبحث الثاني: السخرية الجلية ومكوناتها

أ- المجون والإقذاع⁽⁵⁵⁾:

بالمجون والإقذاع يقصد به في النادرة الكلام الفاحش أو السب والانتقاص بالكلام الفاحش البذيء، وأبو العيناء لم يتورع عن ذلك في معظم نوادره، ومن أمثلة ذلك هذه النادرة:

«وسأله المتوكل عن ميمون بن إبراهيم صاحب البريد، فقال: يد تسرق، وإست تضرط، مثله مثل يهودي سرق نصف جزيته، فله إقدام بما أدى، وإحجام بما أبقى، إساءته عمد، وإحسانه تكلف»⁽⁵⁶⁾، نلاحظ أن أبا العيناء بذاء؛ فهو لا يتورع عن قول الفحش من القول حتى أمام الخليفة المتوكل، ولعل سخريته من صاحب البريد جعله يذكر أبشع ما فيه بأبشع العبارات من أجل الانتقاص من قيمته، ولاشك أن المثال الذي مر بنا في الأمثلة السابقة في حوار مع ابن مكرم «قال له ابن مكرم: كان الكلب صاحب البريد يحب أن يشم الخراء فقال: لو رأيك لترشفك»⁽⁵⁷⁾ أيضاً فيه بذاءة وإقذاع صريح ووقاحة ينبو عنها الإنسان العاقل، فأبو العيناء في نوادره يميل كثيراً إلى المجون والإقذاع في الانتقاص من خلقة وخلق أصحاب السلطة، ولعله في حديثه مع المتوكل يريد الإضحاك من ناحية، كما أنه يريد أن يصف بشاعة ما يقوم به صاحب البريد، ولعل تخيره لهذه الألفاظ ربما لكي يقرب رائحة الشم والأفعال القبيحة التي يستكرها الإنسان، فالمرء دائماً يهرب من الرائحة الكريهة، فكيف إذا كانت الأفعال القبيحة والأخلاق السيئة والسرقة ونهب أموال الرعية تُصدر رائحة؟

إن الأفعال السيئة إذا كانت تصدر روائح كريهة فإن الكون يضيق بأصحابه، وأبو العيناء يضمّر بهذا الإقذاع والمجون هذا المعنى في نوادره، وكأنه يقول للخليفة في النادرة الأولى عليك أن تشم رائحة ما يقوم به عمالك والمقربون إلى السلطة، وفي النادرة الثانية، يرد على ابن المكرم، بأنه أبشع رائحة من الغائط. وأبو العيناء هنا يحاول أن يستبدل وظيفة الشم ويجعل مفعولها يعمل في الفعل وهي ميزة جديرة بالتأمل في نوادر أبي العيناء. ولا شك في أن مبالغة أبي العيناء فيما يقول هي من قبيل لفت انتباه المتلقي ليتأمل فيما يحدث حوله؛ لأن فظاعة ما يقوم به المقربون إلى السلطة لا بد أن يكون محط اهتمام الخليفة وغيره ممن يريد إصلاح البلاد والعباد.

ب- التهكم والإضحاك:

التهكم: هو الاستهزاء، أو السخرية، وهو ما كان ظاهره جداً وباطنه هزلاً، والتهكم عند المحدثين طريقة من طرق البلاغة، وهي أن تريد شيئاً وتظهر غيره، أي أن تعبر عما تريد أن تقوله بقول مضاد له فتجيء بالذم في قالب المدح، أو بالجد في قالب المرح، أو بالحق في قالب الباطل. والغرض من هذا التعبير المخالف للحقيقة تقويم السلوك بطريقة الفكاهة، وسرعة البديهة. لأن النفوس تستعذب الجد الذي يعرض عليها بثوب الهزل⁽⁵⁸⁾ ونستشف تهكم أبي العيناء من المتوكل في هذه النادرة:

«قال المتوكل: لولا ذهاب بصر أبي العيناء لأردت منادمته، وبلغه ذلك، فقال: قولوا له: إني إن أعفيت من قراءة نقوش الخواتم، ورؤية الأهله صلحت لغير ذلك. وأنهى ذلك إلى المتوكل فضحك وأمر بمنادمته»⁽⁵⁹⁾. فعلى الرغم من أن أبا العيناء لم يكن متواجداً عندما تكلم المتوكل -وتمنى منادمته، تحجج بفقدان بصره- فإنه عندما سمع بهذا الحديث كان سريع البديهة، فرد رداً فيه تهكم من المتوكل، وهذا التهكم جاء في قالب سخرية هزلية، ولكنها مقنعة وراعدة في الوقت نفسه، فالمنادمة التي تحدث عنها المتوكل لا

(55) - أقذع - إقذاعا 1- أقذعه : شتمه . 2 - أقذع له : رماه بالفحش وأساء القول فيه . 3 - أقذع القول : أساءه . 44 - أقذع : أنتهت ب « أقذع

«، أي الفحش ونحوه ينظر المعجم الوسيط وقاموس اللغة العربية وقاموس عربي.

(56) المرجع السابق، (ج3/215).

(57) المرجع السابق (ص210)

(58) ناجي، مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية (ص213)

(59) ابن أبي سعد، نثر الدرر (ج3/218)

تقتضي أن يستعمل أبو العيناء بصره، فالنديم هو المرافق المصاحب على الشراب والمسامر في الليل وهذا لا يقتضي أن يكون الإنسان مبصراً، لذلك تعجب أبو العيناء من قول المتوكل ورد رداً مفحماً بقوله: "إني إن أعفيت من قراءة نقوش الخواتم، ورؤية الأهله صلحت لغير ذلك"، ومقتضاه أن المسامرة لا تقتضي شخصاً مبصراً؛ أي أن يقرأ النديم نقوش الخواتم أو يبحث عن رؤية هلال أول الشهر، ولذلك ضحك المتوكل من كلام أبي العيناء لما يحويه من حقيقة صادمة، وكأنه يقول له إنك ترفض منادمتي وتتججج بحجة واهية، فكانت حجة أبي العيناء أقوى وأبلغ وتحمل في طياتها تهكماً وسخرية صارخة من المتوكل. وفي الحقيقة أن معظم نوادر أبي العيناء التي مرت بنا تحمل تهكماً وسخرية بارزة، ويمكن أن نشير إلى دلالة التهكم في هذه النادرة:

«وقال أبو العيناء: أدخل على المتوكل رجلاً قد تنبأ؛ فقال له: ما علامة نبوتك؟ قال: أن يدفع إلي أحدكم امرأته؛ فإني أحبلها في الحال. فقال يا أبا العيناء: هل لك أن تعطيه بعض الأهل؟ فقلت: إنما يعطيه من كفر به؛ فضحك وخلاه»⁽⁶⁰⁾، فعلى الرغم مما في هذه النادرة من إقذاع ومجون فإنها تحمل تهكماً صريحاً؛ فأبو العيناء يوضع دائماً في مواضع حرجية، خاصة من أصحاب السلطة والنفوذ، ولكنه كان سريع البديهة وقوي الحجة ساخراً متهكماً مضحكاً للخصم؛ «فالشَّحْكُ جزءٌ من طبائع الإنسان كذلك شأنُ التَّهْكُمِ، ولكنَّه يختلف عنه من حيث مبدأ ارتباط النُّعْتِ بالمنعوت، فالشَّحْكُ خاصَّةٌ جنسٍ، ولكن التَّهْكُمُ خاصَّةٌ فردٍ، ويشبه ذلك العلاقة بين التَّدْوُقِ الفني والجمالي، والإبداع؛ فالنَّدْوُقُ خاصَّةٌ عامَّةٌ للإنسان، وإن تفاوتت وتباينت، أمَّا الإبداع فهو خاصَّةٌ أفراد، بمعنى أن التَّهْكُمَ فنٌّ، والفنُّ بحاجةٌ إلى موهبةٍ والموهبةُ لا توجد عند كلِّ النَّاسِ، فالتَّهْكُمُ إذاً واحدٌ من فنون الإضحاك وأساليبه، وأن تجعل إنساناً أضحوكة لك أو لغيرك فهذا يعني أن تخفضه دونك ودون الآخرين، وتخفض الآخر يقابله التَّعَالِي عليه، والتَّعَالِي إمَّا أن يكون طبعاً أو أن يكون تشفياً، فإن كان طبعاً كان أصله إما تكبُّراً أو غروراً أو ميلاً إلى الدُّعَابَةِ والفكاهة، وإن كان تشفياً إمَّا أن يكون حقداً أو حسداً أو هزواً أو استكاراً لأمرٍ غير مقبولٍ ولا مستساغٍ»⁽⁶¹⁾. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ أبا العيناء قد حوى ذلك جميعه تقريباً في نوادره، خاصة في هذه النادرة التي كان فيها متهكماً هازئاً مستكراً فرد على المتوكل قولته التي مقتضاها أن المتوكل هو الذي كفر بهذا المتنبّي ولذلك عليه أن يفعل ما يقول له، وهذا الرد كان للخليفة المتوكل ولم يتورع أبو العيناء عن مثل هذا الرد، لأنه يدافع عن نفسه، كما أنه كان ذكياً، فهو لم يصرح باسم المتوكل على الرغم من أنه كان يقصده وإنما كانت الإجابة عامة: "فقال يا أبا العيناء: هل لك أن تعطيه بعض الأهل؟ فقلت: إنما يعطيه من كفر به؛ فضحك وخلاه"، فتخلص بهذه الإجابة من مكيدة المتوكل الذي أراد أن يحط من شأن أبي العيناء ويسخر منه.

وخلاصة القول أن نوادر أبي العيناء على الرغم مما فيها من بذاءة في كثير من الأحيان فإنها كانت تتسم بسرعة البديهة ويغلب عليها التهكم، كأداة بلاغية مهمة تضرر السخرية التي هي مدار حديثنا.

ولعل أهمية التهكم تكمن في أنه الأداة التي يمكن للجميع استخدامها، فهو أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب وأصحاب النوادر وكل ما من شأنه أن يرد رداً يستخدم فيه النكاية بالخصم وهي حينئذ تكون لذعاً خالصاً وقد تستخدم برقة وحينئذ تكون تهكماً وعلى هذا فإن اللذع والتهكم لونا من ألوان السخرية⁽⁶²⁾.

ولكن سخرية أبي العيناء كانت منصبية على أصحاب السلطة والنفوذ، فهي من ناحية تميل إلى الطرفة والمجون والإقذاع والتهكم والضحك، ولكنها تضرر أبعاداً كثيرة غائرة يغلفها الرمز والتلميح، فهي تستبطن نقداً لاذعاً للسلطة في تلك الفترة الزمنية، ويندرج هذا النقد المضرر للسخرية في:

(60) المرجع السابق (ج3/208)

(61) ناجي، مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية (219)

(62) المرجع السابق، (ص215).

- 1- النقد الاجتماعي: وما يقوم به أصحاب السلطة والنفوذ من أخلاق سيئة، سواء أكان ذلك على مستوى معاملة الرعية معاملة سيئة، أم على مستوى النهب واختلاس أموال الدولة، أم على مستوى الانحطاط الأخلاقي.
- 2- النقد السياسي: الذي وجه فيه أبو العيناء نقداً للسلطة السياسية تجاه ما تقوم به من عنف على الفرق المخالفة لهم وقتل بعض العلماء ممن يعترضون على ما يقوم به الأمراء والخلفاء في تلك الفترة الزمنية.
- 2- النقد الديني: وجه أبو العيناء نقداً دينياً إلى أصحاب السلطة من حيث اقتداره على استحضار الآيات، فقد كانت معظم نوادره تستحضر الآيات القرآنية، ومن ناحية أخرى استطاع أن يفضح سلوكيات أصحاب السلطة الذين ابتعدوا عن الله وتمسكوا بالدور والقصور وشرب الخمر وحب الدنيا، ونسيان الآخرة.

الخاتمة:

- بعد هذه الجولة في رحاب مدونة أبي العيناء والحفر فيها تداولياً، يمكن أن نستخلص جملة من النتائج لعل أبرزها:
- تكتسب السخرية أهمية قصوى داخل الخطاب الأدبي للنوادر على مستوى تشكّلها، أولاً بصفتها ظاهرة فنية تقوم على علائق لغوية وعلامات وأقوال لغوية مرتبطة بالكتابة بصفتها ممارسة نصية، وعلى مستوى إسهامها في إنتاج دلالة النص.
 - تعد السخرية طريقة من طرق التعبير، وصورة هجائية للجوانب القبيحة والسلبية للحياة وتصوير لعيوب المجتمعات، ومفاسدها، وحقائقها المرة، يستعمل فيها الشخص ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، والغرض منه الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يضحك منه، الغاية الكبرى من السخرية، تحقيق الوعي وإيجاد اليقظة.
 - أن النادرة هي خبر لخلق انفعال بقصد الإضحاك، وهي خبر فكاهي ونوع من القصص الفكاهي. ومما تحفل به هو الخبر الهزلي الذي يعتمد على السخرية من الآخر وكشف صفاته. وذكر الأمور غير المألوفة أو المعتادة احتوائه على شيء من المفاجأة واعتماده آلية المبالغة في سرد الأحداث وكذلك أسلوب المفارقة
 - يعتمد أبو العيناء إلى اتباع طريقة تمكنه من التأثير بالقول، وهذه الطريقة هي عمل عقلي مبني على أمور نفسية واجتماعية وتاريخية تتفاعل في ذهن المتكلم فيقوم باختيار الوسائل للوصول إلى هدف معين.
 - اعتمد أبو العيناء على سياقات لغوية وسياقات مقامية جعلت سخريته من السلطة تخلق عنصر الإدهاش والمفاجأة .
 - يمتلك أبو العيناء شجاعة أدبية وسرعة البديهة في مواجهة أصحاب السلطة والنفوذ بطريقة حجاجية حوارية، تمتلك قوة التأثير بالقول وتشكل ردة فعل هزلية كونها أتت في قالب فكاهي ساخر، تارة يعتمد فيه على المجون والإقذاع وتارة يعتمد فيه على استحضار النصوص القرآنية من أجل إسكات الخصم.
 - جاءت نوادر أبي العيناء متنوعة الأساليب الخطابية التواصلية التأثيرية، كالسخرية في قالب المدح والتعريض والمخالطة.
 - كان أبو العيناء دائماً ينتصر لنفسه في المواقف الحرجة، بأسلوب ساخر يضمن نقداً لازعاً للسلطة تتوع بين النقد الديني والنقد الاجتماعي والنقد السياسي.
 - تعد نوادر أبي العيناء صورة من صور الواقع المضحك المبكي في تلك الفترة الزمنية.

المراجع:

- أبو العيناء البصري الطريف، الصفار ، ابتسام مرهون ، العراق، منشورات جامعة بغداد، 1988، (د.ط) .
- أبو العيناء محمد أبو القاسم بن خلّاد، دراسة وتوثيق في حياته ونثره وشعره ونوادره وأخباره ومروياته، أبو سليم ، أنور ، ط: 1 ، عمان ، الأردن ، دار عمار، 1990.

- الأدب الساخر، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، زاده، شمسي واقف، مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، إيران، منشورات جامعة آزاد الإسلامية، العدد الثاني عشر، السنة الثالثة، 1432 الموافق ل 2012، (د.ط).
- الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، فرج بن رمضان، ط:1، صفاقص، تونس، دار محمد علي الحامي، 2001.
- الأعلام، الزركلي، خير الدين، ط:5، بيروت، دار العلم للملايين، 2002.
- بلاغة الخطاب الحكائي، إستراتيجيات الحجاج في كلية ودمنة، أحمد أو الطوف، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2014، (د.ط).
- بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي: فكر ونقد، كنوسي، سميرة، مجلة ثقافية فكرية، العدد 35، (د.ط)، (د.م)، (د.ت).
- بلاغة النادرة، مشبال، محمد، ط:2، طنجة، المغرب، دار جسر للطباعة والنشر، 2001.
- تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي، فروخ، عمر، ط:4، بيروت، دار العلم للملايين، 1981.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم المصطفوي، حسن، ج 11، (د.ط)، (د.ت)، (د.ن)، (د.م).
- التراث العربي، الغزالي، عبدالله محمد عيسى، العدد 1، دمشق 2003، (د.ط)، (د.م)، (د.ن).
- جمع الجواهر في الملح والنوادر، القيرواني، الحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1954، (د.ط).
- الخبر الهزلي في أخبار الحمقى والمغفلين، كريم، ميادة عبد الأمير، و لفته، ضياء غني، مجلة ذي قار، العدد 8، المجلد 2، كانون الأول 2012.
- الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية مقارنة تداولية. الانتشار العربي، بالشراكة مع نادي أبها، الشهري، عبد الهادي ظافر، ط1، بيروت، لبنان 2013.
- السخرية، لغتها، أشكالها، دوافعها، أبو القسم رادفر: ديوان العرب، رادفر، أبو القاسم، منبر للثقافة والفكر والأدب، قسم الدراسات المحكمة، تاريخ الزيارة 14 يناير 2017. السبت 29 يناير 2011، (د.ط)، (د.م).
- السخرية ومراتب المعنى، عبد المجيد، نوسي، مجلة جذور، جدة، المملكة العربية السعودية، مج 6 ج 11، ديسمبر 2002.
- الفتاوي الكبرى، ابن تيمية، ط:1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1987.
- الفرق بين النادرة والطرفة، أبو طالب، نصر الدين، 25 مارس 2017، (د.ط)، (د.م)، (د.ن).
- لسان العرب، ابن منظور، ط:1، القاهرة، الجزء 4، دار الحديث، (د.ت).
- مُعجم الشعراء العباسيين. عيف عبدالرحمن، ط:1، جروس برس - طرابلس. دار صادر - بيروت، 2000.
- مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية، ناجي، فانتن حسين، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد 4، العدد 2012، 1.
- المكونات السردية للخبر الفكاهي دراسة في أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، الغزالي، عبدالله محمد عيسى، مجلة التراث العربي، العدد 90، 1 أبريل 2003، (د.ط)، (د.م).
- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، سيد محمد حسين، مكتبة النشر الاسلامي، 1417 هـ، (د.ط)، (د.م).
- نثر الدر، الآبي، أبي سعد منصور بن الحسين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983، (د.ط).
- الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجريًا مقارنة أسلوبية حجاجية، البهلول، عبدالله، ط:1، بيروت، لبنان، مؤسسة الانتشار العربي، 2011.

قائمة المراجع المرومنة:

- 'Abu Aleayna' Albasriu Alzarifa, Alsifar, Aibtisam Marhun , Aleiraq,(In Arabic) Manshurat Jamieat Baghdada, 1988,(D.T.)
- 'Abu Aleayna' Muhammad 'Abu Alqasim Bin Khlad, Dirasat Watawthiq Fi Hayatah Wanathrih Washaerih Wanuadiri Wa'akhbarih Wamurawayatihi, 'Abu Sawilim, 'Anwar,(In Arabic) Ta:1 , Eamman , Al'urdunu , Dar Eamar, 1990.
- Al'adab Alssakhiro, 'Anwaeih Watatawuruh Madaa Aleusur Almadiati, Zadh , Shamsiun Waqif , Majalatan Fasliat Dirasat Al'adab Almaeasira,'Iran ,(In Arabic),Mnashurat Jamieat Azad Al'iislatmiat Aleadad Alththani Eushra, Alsanat Alththalithat ,1432 Almuafiq L 2012 ,(D.T.)
- Al'adab Alearabiu Alqadim Wnzryt Al'ajnasii, Faraj Bin Ramadan, (In Arabic) Ta:1 , Safaqis , Tunis , Dar Mhmmd Eali Alhami, 2001.
- Al'aelam , Alzarkali , Khayr Aldiyn . (In Arabic) Ta:5 , Bayrut , Dar Aleilm Lilmalayin, 2002.
- Balaghat Alkhitab Alhakayiy, 'Istratijiati Alhujaj Fi Kalilat Wadamnat , 'Ahmad 'Aw Altuwf , (In Arabic) 'Tirbid ,Al'urduni , Ealam Alkutub Alhadith Lilnashr Waltawzie ,2014 , (D.T) .
- Balaghat Alsakhriat Fi Almathal Alshaebii Almughrbi:Fkir Wanaqd , Kanusi , Samirat , Majalat Thaqaifiat Fkryt, (In Arabic) Aledd35, (D.T) , (D.Ma) , (D.T).
- Balaghat Alnaadirati, Mashbal , Muhammad , (In Arabic) Ta:2 , Tanjat , Almaghrib , Dar Jusur Liltabaat Walnushri, 2001.
- Tarikh Al'adab Alearabi: Al'aesar Alebasyat, Furukh , Eamra, (In Arabic) Ta:4 , Bayrut , Dar Aleilm Lilmalayin , 1981.
- Altafhiq Fi Kalimat Alquran Alkarim Almustafwi, Hasn, (In Arabic) J 11. (D.Ta),(D.T),(D.N),(D.M).
- Alturath Alearabiu , Alghazali , Eabdallilah Muhammad Eisaa , (In Arabic) Aleudd1, Dimashq 2003, (D.Ta),(D.M),(D.N).
- Jame Aljawahir Fi Almulihi Walnawadiri, Alqirwanii , Alhisrii , Tahqiq Eali Muhammad Albjawy, Alqahrt , (In Arabic) Dar Alkutub Almisriat ,1954 ,(D.T) .
- Alkhabar Alhazliu Fi 'Akhbar Alhumqaa Walmaghfilayn , Karim , Miadat Eabd Al'amir , W Laftat , Dia' Ghaniun , (In Arabic) Majalat Dhi Qar , Aleadad 8 , Almujaaluda2 , Kanun Al'uwla2012.
- Alkhitab Alhijajiu Eind Abn Timiat Muqarabat Tadawly.Alaintshar Alearabii, Bialsharakat Mae Nadi 'Abiha , Alshahriu , (In Arabic) Eabdialhadi Zafir , Ta1,Biruat ,Lbnan 2013.
- Alsakhariat ,Lghatha , 'Ashkalaha ,Dwafeha, 'Abu Alqism Radfr: , Diwan Alearab , Radfir , 'Abu Alqasim , Minbar Lilthaqafat Walfikr Wal'adba, Qism Aldirasat Almahkamat , (In Arabic) Tarikh Alziyarat 14 Yanayir 2017. Alsabt 29ynayr2011 , (D.T) , (D.M) .
- Alsakhriat Wamaratib Almuena, Eibdalmajid , Nusi , Majalat Judhur , (In Arabic) Jidat ,Almamlakat Alearabiat Alsaudiati , Maj 6j11, Disambir 2002.
- Alfatawi Alkubraa , Abn Timiat , (In Arabic) Ta:1, Bayrut ,Lubnan , Dar Alkutub Aleilmiat ,1987.
- Alfarq Bayn Alnnadirat Walturfati, 'Abu Talib , Nasr Aldiyn , (In Arabic) 25maarsa2017.(D.Ta),(D.M),(D.N.)
- Lisan Alearab , Abn Manzur , (In Arabic) T:1, Alqahrt , Aljz'4 , Dar Alhadith , (D.T) .
- Muejm Alshueara' Aleibasiyn. Eif Eabdalrhmn , (In Arabic) Ta:1 , Jurus Bris - Tarabilus. Dar Sadir - Birut, 2000.
- Mafhum Althakum Fi Nusus Muhammad Almaghut Almasrahiati, Naji , Fatin Husayn , (In Arabic) Majalat Markaz Babil Lildirasat Al'iinsaniati, Aleiraq , Almajald4,Aledd1,2012.
- Almukuanat Alsirdiat Lilkhubr Alfukahii Dirasatan Fi 'Akhbar Alhumqaa Walmughfilayn Liaibn Aljwzy, Alghazalii , Eabdallah Muhammad Eisaa, Majalat Alturath Alearabi, (In Arabic) Aleadad 90, 1abaril,2003m ,(D.Ta),(D.M).
- Almizan Fi Tafsir Alqurani, Altabatibayiyi , Sayid Muhammad Husayn, (In Arabic),Mktb Alnashr Alaslami, 1417h , (D.T) , (D.M) .
- Nathir Aldur, Alabi, 'Abi Saed Mansur Bin Alhsyn, Alqahrt, (In Arabic) Alhayyat Almisriat Aleamat Lilkitab1983, (D.T).

Alwisaya Al'adbiat 'Tilaa Alqarn Alrrabie Hijriiaan Muqarabat 'Uslubiat Hijajiatu, Albahlul , Eibidalalah, (In Arabic). Ta:1 , Bayrut , Lubnan , Muasasat Alaintishar Alearabii , 2011.